



دراسة في علم السيكوباتولوجي في فقه العلاقات البشرية

لوحات تشكيلية من الحياة والعلاج النفسي
شرح على المتن : ديوان اغوار النفس

الحلقة : (71)

لعبة الحياة (2)

(الفصل الثالث)

شرح على المتن

بصراحة، مازالت عندي مقاومة شديدة لكتابة شرح على متن هذه القصيدة بشكل خاص، ومع ذلك فأنا مضطر، لم يبق على نهاية الكتاب إلا قصيدتين، ثم الختام، لتكن ورطة، هي كذلك، فلتتم بما يمكن، والسلام.

إذا وصلنا أن الحياة هي الحياة، فهي لا تحتاج إلى مزيد من شرح،

لكن ما دمنا في مجال استغلال المتن، للدخول إلى بعض ما يعيننا في مهنتنا، وبالذات في موقف العلاج النفسي، فلتستمر المحاولة ضد كل مقاومة.

المرض النفسي، كما كررنا مراراً، هو توقف مؤلم، أو منسحب، أو متجمد، وكل هذا هو "ضد الحياة"، كما بينا في الحلقة السابقة، إذن يمكن أن نتصور أن العلاج، والعلاج

النفسي ضمنا هو "إحياء" بكل معنى الكلمة، "ومن أحياءها، فكأنما أحيانا الناس جميعا"، إذن قد مجرد بالطبيب النفسي، المعالج النفسي، أن تكون عنده بعض ملامح عن ماذا يعنى "بالحياة"، ما دامت وظيفته هي الإحياء، شريطة ألا ينسى أن لديه شخصياً نفس الفرصة لتنشيط الحياة في نفسه من جديد، حتى وإن كانت نشطة بشكل ما، إلى درجة ما.

-1-

الحياة هي الحياة

أغلى حاحه فيها هيئا:

"إني عايش"

لا يوجد تفسير للحياة إلا أنها الحياة،

كثيرا ما طرح عليّ مريض هذا السؤال: ماذا عليّ أن أقرر الآن؟ فأجدي أطرح نفس السؤال على نفسي دون أن أدري، وقد كنت أرد على كثير من مرضاي، دون تجاوز الأمور الحياتية اليومية التي علينا أن نقررها سويا، أو يقررها هو مؤتسنا بعلاقتنا (حتى لا يزعج الخواجات)، كثيرا ما كنت أجد نفسي أقول له (ولنفسى) :

عليك أن تقرر: "إما أن تحيا، أو لا"، ولم أكن أقول عادة "إما أن تحيا أو تموت"، خشية أن أثير عنده هذا الاحتمال وكأنه بديل حقيقي، أو بصراحة: لأننا عادة ما يكون انطلاقنا - ونحن لا ندري- هو من أن عمق مهنتنا هي أنها تسهم في إحياء الموتى، (بفضل الله والفن العلاجي/ العلم).

فهل لميت (مع المبالغة) أن يعيد اختيار موته؟

لم يبق إلا أن تعرض عليه، وعلينا اختيار "الحياة".

أغلى شيء في الحياة هو الحياة نفسها:

"أغلى حاحه فيها هيئا

"إني عايش"

لا تُقَيِّم الحياة بما يملؤها من مكاسب، أو ملذات، أو أملاك، أو حتى قيم، وربما إنتاج،

"الحياة حياة" قبل كل هذا وبعد كل هذا،

نتعلم من أجدادنا من ملايين السنين أن بقاء الأحياء الأدنى (التي كثيرا ما أشعر بالخجل حين نصفها أنها أدنى) هو "أن تبقى"، بلا أي سبب لاحق،

لا يبقى العصفور في عشه حيا، لأنه عش جميل، أو ملجأ آمن، ولا يبقى الأسد حيا، لأنه ينتظر من السيدة حرمه اللبوة أن تقوم بتمشيط شعر لبدته قبل اللقاء السعيد،

العصفور والأسد يعيشان الحياة أولاً، ثم تُمَلَأُ الحياة بما تستحق أن تُمَلَأَ به، فيبقى النوع ، ويقاوم الانقراض جيلاً بعد جيل

حين تنحرف المسيرة، وتصبح الحياة "هى ما تحوى"، وليس "ما تُفرز بما هى"، يصبح التهديد بالانقراض أقرب!

حين اكتسب الإنسان الوعى، أصبح يقيس الحياة، ويخطط لها، وبحسب مبررات استمرارها، بمقاييس منحازة إلى منطقته الظاهر، وليس إلى كلية وجوده طولاً وعرضاً، وأيضاً بمقاييس من خارجها، من خارج الحياة، بعضها من صنعه، ليست كلها لصالحه.

الحياة يلزمها بداية نسيج متين من البنية الأساسية كى تنبض، لكن لا ينبغي أبداً أن يحل هذا النسيج التحتى مهما كان ضرورياً محلها برغم أنه من أساسياتها، أو من شروطها، أو من ضروراتها .. إلخ

يظل مجرد حقيقة "أنى أحيا"، هى الحقيقة البادئة التى لو امتلأنا بها، وأمكن أن نبعثها فى مريضنا، لأصبحت نقطة انطلاق واعدة منفتحة .

لا شك أن حياتنا المعاصرة قد أنستنا هذا تماماً، أو غالباً، أو إلى حد كبير،

لو أحسنّت الإنصات إلى صوت عصفور الكناريا على فرع شجرة، لوجدته يردد نفس هذين البيتين:

الحياة هى الحياة

أحلى حاجة فيها، هيأ:

"إنى عايش"

ما رأيك لو نتوقف عند هذا المقطع، ونحاول أن نردده لعلنا نصدق به هو، دون إبداء أسباب

(يمكن أن تفعل ذلك وأنت تسمع غناء هذا العصفور بعد أن تنزل صوت غنائه من جوجل!!)

الصوت موجود فعلاً: حاول).

.....

هيا نجرب

.....

الحياة هى الحياة

أحلى حاجة فيها، هيأ:

إنى عايش

.....

الحياة هي الحياة

أحلى حاجة فيها، هيّا:

إنى عايش

.....

الحياة هي الحياة

أحلى حاجة فيها هيّا:

إنى عايش

.....

ما رأيك؟

وحتى نلتقى الأربعاء القادم أقترح أن تعود إلى قراءة القصيدة على بعضها من نشرة الأربعاء الماضى..

- مرة أخرى واحد فى الألف من كل الأحياء هو الذى نجح فى هذا الامتحان.